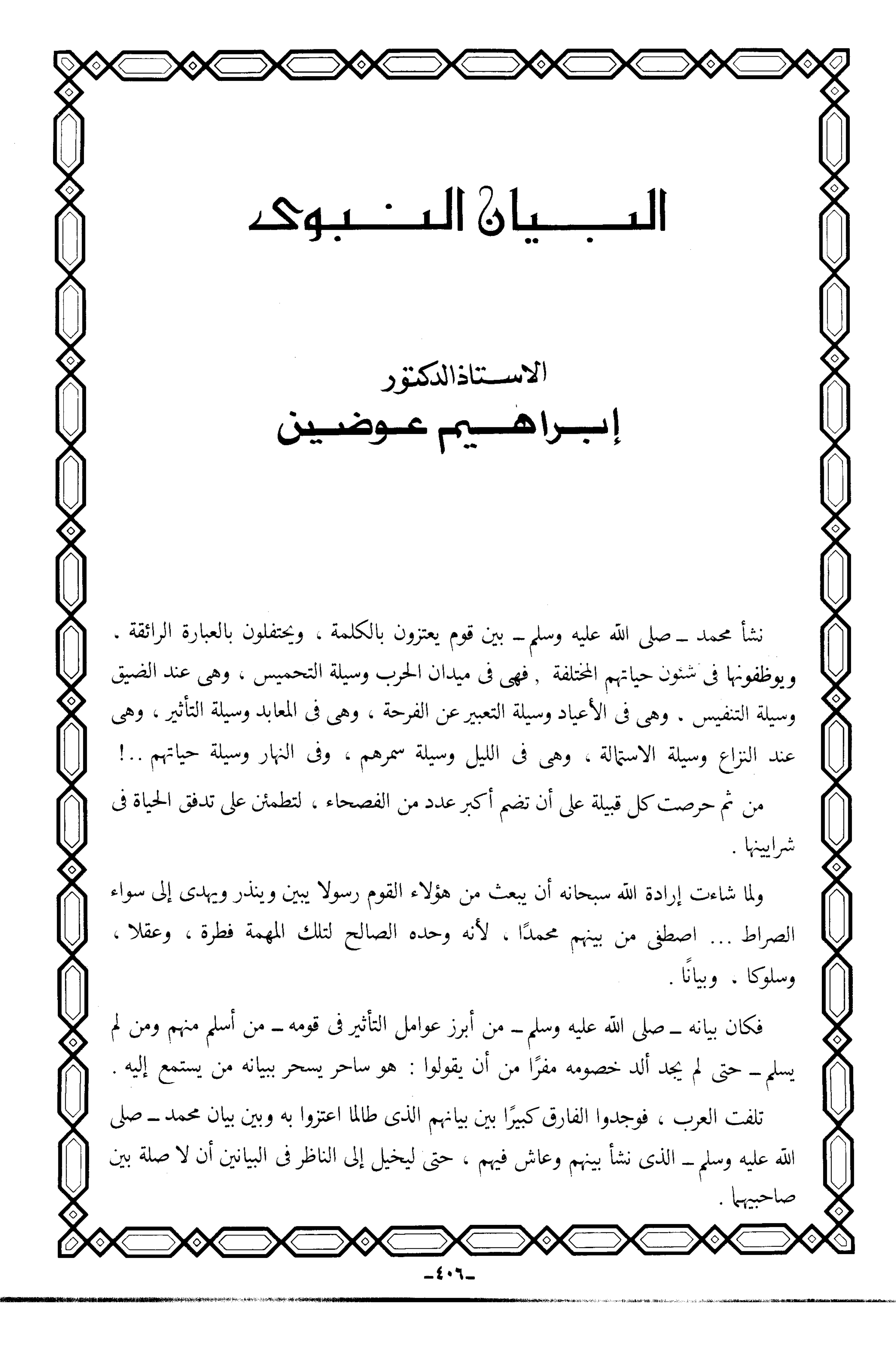


البيان النبوى

الأستاذ الدكتور
إبراهيم عوضين

نشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين قوم يعتزون بالكلمة ، ويحتفلون بالعبارة الرائقة . ويوظفونها فى شئون حياتهم المختلفة , فهى فى ميدان الحرب وسيلة التحميس ، وهى عند الضيق وسيلة التنفيس . وهى فى الأعياد وسيلة التعبير عن الفرحة ، وهى فى المعابد وسيلة التأثير ، وهى عند النزاع وسيلة الاستمالة ، وهى فى الليل وسيلة سمرهم ، وفى النهار وسيلة حياتهم ..!

من ثم حرصت كل قبيلة على أن تضم أكبر عدد من الفصحاء ، لتطمئن على تدفق الحياة فى شرايينها .

ولما شاءت إرادة الله سبحانه أن يبعث من هؤلاء القوم رسولا يبين وينذر ويهدى إلى سواء الصراط ... اصطفى من بينهم محمدًا ، لأنه وحده الصالح لتلك المهمة فطرة ، وعقلا ، وسلوكا . وبيانًا .

فكان بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبرز عوامل التأثير فى قومه ـ من أسلم منهم ومن لم يسلم ـ حتى لم يجد ألد خصومه مفرًا من أن يقولوا : هو ساحر يسحر ببيانه من يستمع إليه .

تلفت العرب ، فوجدوا الفارق كبيرًا بين بيانهم الذى طالما اعتزوا به وبين بيان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى نشأ بينهم وعاش فيهم ، حتى ليخيل إلى الناظر فى البيانين أن لا صلة بين صاحبيهما .

ولقد كان هذا الفارق الكبير وراء وهم كبير سيطر على أولئك الذين خاصموا محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاندوه ، فقالوا إنه تعلم على أيدى رهبان النصارى ، وحصل من أفكارهم فكره .

بل لقد كان هذا الفارق الكبير وراء تفسير معاصريه ممن حقدوا عليه لسبقه إياهم فى هذا الميدان وفى غيره ، فقالوا : هى نفثات ساحر يستولى بها على لب سامعه ، ظنًا منهم أن هذا يكفى فى تعليل تفوقه عليهم هذا التفوق الظاهر ، مع أنه ـ كما يرون ـ يمتح من المعين ذاته الذى منه يمتحون .

ولو نظر هؤلاء وأولئك إلى البيان النبوى وصاحبه نظرة موضوعية مجردة من الغرض والحقد ، لرأوا الحقيقة ، ولعرفوا أن وراء تفوقه أسرارًا بيانية لم تتح لهم هى التى منحته القوة المؤثرة فى نفوس من يتلقونه على امتداد الزمان واختلاف المكان .

وكان من أبرز عوامل الاختلاف بين بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيان قومه ... أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدد من أول الأمر لبيانه وظيفة ـ أو حددت له ـ فقد رأى أن كل كلمة تخرج من فيه إن هى إلا رسول بينه وبين المتلقين عنه ليبلغهم رسالة ربه التى قصر عليها فى قوله تعالى :

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » [٤٩ الحج]

وقوله : « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » [٨٢ النحل]

فإذا كان الأديب ـ عربيًا وغير عربى ـ يبحث عن الفكرة ، أو ينتظرها حتى تواتيه ليلبسها ثوبًا من تعبيره الذى تخصص فيه ليلحق بأديب ذاع صيته ، أو لينافسه على ما نال من شهرة ، أو يمكن لنفسه عند قومه حين يقنعهم بأنه أصبح لسانهم المدافع عنهم .

إذا كان هذا هو ـ فى الغالب ـ الدافع الذى يدفع الأديب لينطق ، فإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان غير ذلك ، إذ لم يكن أديبًا محترفًا ، بل كان مكلفًا بدعوة محددة المعالم ، واضحة الأبعاد ، وعليه أن ينتقى مما أوتيه من فصاحة العبارة التى تناسب الموقف ليوصل الفكرة إلى المتلقى ... فكل هدفه أن يجعل من الكلام وسيلة توصل ما عنده إلى من يتلقى عنه ... كل وفق حاله ، وحسب بيئته .

ومن ينظر فى المأثور من أدب العرب الجاهليين والإسلاميين يجد أنهم عنوا ـ فى الدرجة الأولى ـ بالشعر وتفننوا فيه ، وقلبوه على شتى وجوهه ، فكانت لهم أوليات وسوابق لم تؤثر عن

غيرهم ، اعتزوا بها وردداتها ألسنتهم فى مجالات كثيرة ، سواء فى ذلك التصوير المبدع ، والإيجاز الحكيم ، والإطناب اللائق ، والوقوع على المفرد الموحى ، والخلوص إلى المعنى الرائق . فكان الشعر ميدان تفوقهم ، ومحك تنافسهم ، ومظهر براعتهم ، وسلاحهم المشهور فى كل حال ، من حرب وسلام ، وعمل وسمر ، وعبادة ولهو ، حتى خيل إلى الدارسين أنهم كانوا يتعاملون بالشعر دون غيره . به يأكلون ويشربون ، وله يتحركون ، وعليه ينامون . !

وعلى هذا كان السابق منهم أستاذ اللاحق ، منه يأخذ ، وعليه يتعلم ، وبه ينمو ويتسنم مكانه بين شعراء قومه .

فالعربي لهذا ـ وإن كان البيان واحدة من أهم أدواته فى الحياة ـ ما كان ليحقق وجوده الفنى ، ويصل إلى مكانه البيانى إلا بتهذيب الكلام ، ومراجعة الصيغ ، والمبالغة فى إحكام العبارة وتجويد النسج ، حتى يصل إلى ما يصبو إليه من مكانة وصل إليها سابقه ، أو يضمن لنفسه التفوق عليه ، فأدبهم ـ لذلك ـ أدب حرفة وصنعة .

ومن ثم لم يسلم هذا الأدب من الاضطراب والاستكراه ، ولم يخل من كلمة غيرها أفضل منها فى موقعها ، ولا من إطناب فى موطن الإيجاز ، وإيجاز فى موطن الإطناب

هذا إلى أن الناظر فى أكثر كلامهم يجد نفسه أمام كلام يشد بكثرة مادته ، وانطلاق لسان قائله ، وتشقيقه القول فى شتى مناحيه ، فإذا انتهى الحديث ، ورجعت إلى نفسك لتستعيد ما سمعت ، لم تجد إلا أنك سمعت كلاما كثيرًا يدل على تمكن صاحبه ، وسعة اطلاعه . أما ما تركه من أثر فى النفس فلا تكاد تجد له أثرًا يذكر .

أما بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فواضح من النظر فيه أن صاحبه لم يتوسل فيه بأى وسيلة من وسائل الصنعة المتكلفة ، ولا اعتمد فيه على زينة مقصودة ، ولا جاوز به مقدار الإبلاغ فى المعني الذى يريده .. لا تختلف به حالة عن حالة ، فهو فى التأنى والروية لا يختلف عنه فى البديهة والمفاجأة ، ينهل من منهل واحد ، ويبين فى نسق واحد ، تستمع إليه فتدرك أنك أمام إنسان لا يهتم بغزارة المادة ، ولا يتباهى بتوليد الكلام وتشقيقه ، ولكنك تلمس فى قوله حرارة وإيمانًا يشدانك إليه ، وتجد فى كلامه دقة ووضوحًا ينقلان إليك ما يريد ، فأنت معلق به ، فإذا انتهى من كلامه وجدت نفسك مملوءة بما سمعت وأحسست بتأثيره يسرى فى كيانك ، ليحدث فيك أثر السحر .

من ثم كان ضروريًا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصرف عن قول الشعر والتعرض له ،

لتسلم فطرته البيانية من تلك النقائص التى تعتور الشاعر ، من تكلف الصنعة ، والاشتغال بالمباهاة والتفاخر. وصدق الله العظيم : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

نعم لقد ترك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجناس البيان ذلك الجنس الذى استغرق من بلغاء قومه جهدهم فى الكد والعلاج ، سعيًا منهم وراء التفوق والسبق ، لا قصدًا إلى الإيضاح والإبانة ... واتجه إلى جنس آخر من أجناس البيان ـ هو الذى يلائم مهمته البيانية ـ فشد أنظار قومه إلى ما صنع ، ووجههم إلى احتذائه ومحاكاته فانصرفوا عن الشعر شيئًا ما ، وحرصوا على أن يكون لهم فى ميدان النثر نشاط أدبى ، من باب التنافس والتسابق الذى اعتادوا عليه وسيطر عليهم ، ولكن دون جدوى ، فلم يكن لهم بد من التوقف زمنًا حتى يتبينوا موضع أقدامهم ، ويتمكنوا من التعرف على ما فى كلامه من أسرار تجعله يستحوذ على السامع ، ويتملك المتلقى ، حتى صور الوهم لبعضهم أنه يتفوه بما يسحر ، فقالوا : هو ساحر.

لقد وجدوا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفوقًا وتبريزًا فى الإبانة بالنثر على غير عهد سابق يمكن أن يظن به احتذاؤه ، ولو توسل فى ذلك بالشعر لقالوا : من أسلافه أخذ ، وعلى هداهم سار. ولكنه تنكب طريقهم المشهور ، وسلك الطريق الوعر الذى قل فيه السائرون منهم ، وندر المتوارث المحفوظ من نتاجه ، فأبان وأفصح ، وتفرد باشتقاقه من مفردات اللغة ما يتطلبه الموقف ويستدعيه المقام من الأسماء والمصطلحات .

حقًا كان العرب يشتقون ، وينقلون الكلمة من معنى قريب أو ذى علاقة ، لكنهم لم يتجاوزوا فى أكثر ذلك التوسع فى الموجود ، فهم لا ينشئون جديدا مبتكرا

أما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان له فى ذلك من القرآن الكريم القدوة ، فابتكر فى العربية الكثير من الألفاظ التى كان العربى يقف أمامها كالغريب عليها ، يجد نفسه فى حاجة إلى السؤال عن معناها ، كما روى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبى تميمة الهجيمى : (إياك والمخيلة) ، فقال : يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (سبل الإزار) .

ولم يقف ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند حد التفرد فى الاشتقاقات المفردة ، بل لقد تفرد كذلك فى التراكيب العجيبة التى لم يكن للعرب بها عهد ، وما أثر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التراكيب الجامعة التى تسير سير الأمثال أضعاف أضعاف ما أثر عن أسلافه ومعاصريه من بلغاء قومه وحكمائهم ، مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى يوم بدر : « هذا يوم له ما بعده » ،

وقوله لأنجشة لما رآه يجهد الإبل بحدائه فتضطرب النساء فى الهوادج فوقها وتهتز : « رفقًا بالقوارير » ، وقوله فيمن مات ميتة لا تحمل له ذكرى : « مات حتف أنفه » وقوله يوم حنين حين اشتدت الحرب : « الآن حمى الوطيس » . والمأثور من ذلك أكثر من أن يحصر أو يحصى .

وإذا كان البليغ فى الأمة يمتاز على غيره بالجملة الواحدة ، أو ببضع جمل من ذلك ، فإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم لأمته فى المفردات ما يملأ معجما لغويًا ، وفى التراكيب ما يملأ أسفارًا , ليقف السابق واللاحق خلفه دون منازع .

وإذا كان البليغ فى الأمة يمتاز بما يمتاز به عن قصد وتعمد ، حتى يبز سابقيه ، ويتفوق على أقرانه ، ويحقق لنفسه الزعامة على معاصريه ولا حقيه ، فإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما قدم من مفردات وتراكيب مأثورة ـ ما قصد من وراء ذلك تميزًا ولا تفوقًا ولا زعامة ، وإنما قصد أن يصل بما يقول إلى سامعيه .. إنما قصد الإبانة القائمة على رعاية ما يقتضيه الحال ، والمستمدة من فطرة بيانية صادقة كل الصدق ، صافية أنقى الصفاء , فحقق أرقى ما يسعى إليه الأديب من إقناع وإمتاع . بيد أن الأديب لا يصل إلى شيء من ذلك إلا بكد الخاطر ، وطول الأناة ، وتقليب الكلمات والعبارات ، لينتقى ويختار ، ثم بمعاودة النظر ، وغربلة ما صاغ ، ليصطفى ما يلائم وما يحقق الإقناع والإمتاع .

أما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان يصدر فى بيانه عن فطرة هذبها القرآن الكريم ، فا نطلقت فى هذا الميدان محققة عنصرى الإبانة الفنية ـ الإقناع والإمتاع ـ من غير حاجة إلى مراجعة الأدباء الآخرين ونظرهم وتنقيحهم واصطفائهم .

ومن ثم لم يكن غريبًا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجمع فى بيانه فنون القول المختلفة ، وأن يكون فى كل فن منها على المستوى نفسه الذى يكون عليه فى بقية الفنون ، بحيث نجده فى كل فن يتسنم ذروة البيان وفاء ، ودقة تعبير ، وسرعة وصول ،وسلاسة نسج ، ورعاية حال ، وقوة حجة ، وإشراق ديباجة ... يرى ذلك فى بيانه معاصروه ومن تلاهم إلى عصرنا الحاضر على مدى أربعة عشر قرنًا .

إننا ننظر فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فنجد فيه الحديث المباشر إلى جانب الحوار ، والخطبة ، والقصة ، والرسالة ، والابتهال ... دون أن يضطر فى واحد من هذه الفنون إلى أن يخرج عن السلك الذى ينظم قوله كله ـ وهو الدعوة إلى الإسلام وما يتفرع عليها ـ فهو فى كل هذه الفنون يعالج قضية الرسالة ، ويقوم بدور الداعية الأول .

حقيقة لم يكن على عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ علم للقوم بهذه الفنون بأسمائها التى ذكرت ، ولا لجأ إليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه يريد أن يقول فى هذا الفن ، أو يريد أن يعالج تلك القضية من خلال ذلك الفن .... ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ اهتدى إلى كل فن بفطرته المبينة الصادقة , لأنه الفن الذى يناسب المقام موضوعا ومناسبة وأشخاصًا إلى غير تلك الأمور .

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصد الإبانة أولا وأخيرًا ، واتجهت به فطرته البيانية الخالصة إلى الفن الذى يتطلبه الموقف ، ويستدعيه المقام ، ويناسب المتلقين .

ولا ريب فى أن قصده الإبانة لم يكن للإبانة فى ذاتها ، وإنما الإبانة وسيلة ، فهو يبين ليؤثر فى سامعيه ويقنعهم بما يقدم لهم ، فإذا هم مؤمنون بما يقول ، يعتنقونه فكرًا وسلوكا ودعوة .

وإذا كانت العبارة تحتاج فى الإبانة إلى دقة الصياغة ، ووضوح المعنى ، فإن العبارة تحتاج فى الإقناع والتأثير إلى الصدق بلونيه ـ الفنى والخلقى ـ وإلى الإمتاع بالصورة الرائعة ، والإيقاع الموسيقى المتناسق مع الجو النفسى والدينى والاجتماعى ، ماديًا كان الإيقاع أو معنويًا .

فإذا تحقق ذلك كله استجابة للفطرة الفنية الخالصة ، دون الحاجة إلى الاحتيال على العبارة ، والاعتماد على وسائل الصنعة ونحوها فى التأثير... إذا تحقق ذلك للعبارة ارتفعت إلى ذروة سنام البلاغة والفصاحة البشرية . !

ولقد تحقق ذلك كله فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فإذا نظرنا فى حديثه المباشر ـ وهو الذى يوجهه إلى السامعين ليعالج به أمرًا مباشرًا ـ وجدناه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا اللون من الحديث لم يكن على وتيرة واحدة ، بل كان له فى كل موقف أسلوب وله فى كل موضوع منهج ، يقع عليه بفطرته ، فيخرج حديثه نسقًا فريدًا ، يتلاءم مع المقام الذى قيل فيه . ومن ثم أصبح كل حديث كأنه فن قائم بذاته يجتذب نفوس من يتلقونه ، ويحتفل به كل من يسمعه ، دون أن يشعر بملل من تكرار الكلام أو تكرار الموضوع .

* * *

تراه فى الحديث المباشر مرة مقررًا ، يهجم فيه من أول الأمر على غرضه ، دون أن يحتاج فيه إلى مايمهد به لما يقول من تمثيل أو نحو ذلك من وسائل التمهيد والتهيئة ، من ذلك ماروواه أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

وما روى عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما : قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

« الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

والناظر فى هذا البيان التقريرى يلاحظ أن التقرير فيه ليس لفظيًا فحسب ، ولكنه تقرير معنوى كذلك ، يعتمد فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على العبارات الحاسمة القاطعة التى يضمنها أحكاما وقضايا حاسمة قاطعة كذلك ، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يلجأ إليه بقصد التلوين الأسلوبى ، وإنما يلجئه إليه الموضوع الذى يتناوله ، والتلوين الأسلوبى يأتى فى بيانه تبعًا لما يقصده .

ومن ثم يلاحظ المتأمل فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن هذا اللون من الحديث المباشر يأتى فى التشريعات المحددة ، أو التعريف بالحقائق المقررة فى مجال العقيدة أو العلاقات الاجتماعية ، أو شرح العبادات المفروضة ونحو ذلك .

وحتى لا يكون مثل هذا اللون جافًا جفاف الأسلوب العلمى ، يرى المتأمل أنه يقام على وسائل بيانية توطد الصلة بينه وبين العواطف ، فتحول بينه وبين الجمود ، وتضفى عليه من الظلال والأخيلة ما يفتقده الأسلوب العلمى فتمنحه الإمتاع الفنى إلى جوار الإقناع العقلى .

* * *

وتراه فى الحديث المباشر مرة أخرى ممثلا ، يعتمد فيه على التمثيل المطلق .

والأمثال فى الحديث الشريف لا ترد فى شكل واحد ، ولكن ترد وفقًا لمتطلبات بيانية دقيقة ، لا تحس معها بشىء من التكلف أو الاعتساف . وذلك نحو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :

« أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ! هل يبقى من درنه

شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

وما رواه أبو موسى رضى الله عنه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

* * *

ونراه فى الحديث المباشر مرة ثالثة موصيًا ، يواجه المتلقى بالنصح والتوجيه .

فالوصايا تتميز عن التقارير والأمثال بما تتضمن من نصائح تحوج إلى شيء من التفسير والتعليل والتفصيل ، وتتطلب فى التعبير ما يستميل المتلقى لتجد الوصية طريقها مستقيمة إلى قلب الموصَى وعقله .

ولا ريب فى أن مكانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين فرض عليه هذا اللون التعبيرى ، سواء كانت الوصية ذاتية عامة أو موضوعية خاصة . ومن وصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذاتية العامة ما رواه الترمذى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كنت خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما فقال :

« يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

فالحديث مجموعة من الوصايا قدمها ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإنسان ممثلا فى شخص ابن عباس ، كى يأخذ بها نفسه فيقوّم معوجها ، ويقيها الزلل قبل أن تقع فيه ، ويحوطها بسياج يحرسها من كل طارىء يتهدد أمنها واستقرارها .

والمتأمل فى هذه الوصية يلاحظ أن مضمونها أقيم على حفظ الله ومراقبته وعدم الغفلة عنه .

والوفاء بعهده وميثاقه . ويلاحظ أن بناءها أقيم على خطاب القلب والعقل فى الإنسان ، بحيث لا يجد مفرًا من الإقتناع والتسليم بما ضمنت من توجيهات . ويكفى المتلقى أن يسمع النداء (يا غلام) ليقبل على من يناديه ..! فتنساب إلى كل منافذه تلك العبارات السهلة الرقيقة بما تحمل من مضامين مشعة ، فى سلاسة ويسر.

ومن وصاياه الموضوعية العامة ما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن :

«إنك ستأتى قومًا من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» .

فعلى الرغم من أن هذه الوصية بمثابة دستور يوضح لمعاذ حدود تصرفاته مع المبعوث فيهم . ويبين لهم المنهج القويم فى سلوكه ونطقه وتكيفه بينهم ... على الرغم من ذلك ، نجده ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه قد تجاوز الأسلوب العلمى المحدد المحض ، بما أقام عليه وصيته من إيحاءات ذات ظلال وإشعاعات بيانية خصوصًا فى المطلع والخاتمة .

فالبيان فى الألوان الثلاثة ــ التقرير والتمثيل والوصايا ــ مباشر كما ترى ، ولكنه لونه بما يتناسب مع المضمون . والموقف ، والمتلقى ، دون أن تحس وراء ذلك اعتسافا أو تكلفًا .

وإذا نظرنا فى بيانه الحوارى وجدناه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه يحاور سائلا ليقرر قضية من القضايا التى عالجها الإسلام ، أو ليجلو قيمة من قيم الإسلام ، أو ليوضح بعض عقائد الإسلام .

والبيان الحوارى وسيلة من أهم وسائل الإقناع ، لأن متلقيه يجد نفسه فى شخص السائل المحاور ، بما قد يثير من شبهات ، أو ما يطرح من قضايا يستوضح حقيقتها ، ويستجلى أبعادها .

ولا ريب فى أن الفارق كبير بين الحوار فى بيانه ــ صلى الله عليه وسلم ــ والحوار فى الأدب المسرحى ، إذ الحوار فى الأدب المسرحى يقوم على تقديم المتحاورين وحوارهم للمتلقى ، أما الحوار فى البيان النبوى فإنه يقوم على رواية حوار بين الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وآخر . كما أن الحوار فى الأدب المسرحى تتعدد عناصر التحاور فيه وتختلف اتجاهاتها وقضاياها من موقف إلى

موقف ، لتنشأ عن ذلك حركة قصصية تنتقل بالمتلق من مبتدأ القصة إلى منتهاها ، حيث تهيىء له مشاهدة أحداثها جميعًا ، أما الحوار فى البيان النبوى فيقتصر على عنصرين اثنين هما السائل والمسئول ، ولا يتغير واحد منهما ، بل تظل الأسئلة والأجوبة حتى يتم الكشف عن الحقيقة الدينية ، أو التعريف بالعقيدة المجهولة والمقصود توضيحها والتعريف بها . مثال ذلك مارواه البخارى ومسلم عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، يسمع دوىّ صوته ولا يفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وصيام رمضان . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال : وذكر له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزكاة ، قال : هل علىَّ غيرها ؟ قال : لا.إلا أن تطوع . قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا و لا أنقص . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفلح إن صدق» .

إن الفن الحوارى يأخذ مكانه فى البيان النبوى باعتباره وسيلة تختلف عن غيرها من وسائل البيان الأخرى ، وتفرضها على البيان ملابسات الواقع الحى .

وهو يتميز عن الحديث المباشر بذلك السائل الذى يتخلل الحديث ، مثيرًا انتباه المتلقين واهتمامهم بما يلقى من الأسئلة التى يدور فى رءوسهم مثلها ، بحيث يجعلهم يترقبون الإجابة لتجد مكانها من النفوس المهيأة لاستقبالها ، فتقر وتتمكن .

أما فن الخطابة فى البيان النبوى فقد كان له مكانه منه ، إذ أقبل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أقبل على غيره من فنون البيان ليوظفه فى الدعوة إلى الإسلام ، استجابة منه لأمره تعالى فى قوله: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » لأن الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة القوم بالتى هى أحسن إنما تتيسر أكثر ما تتيسر فى الخطابة ، وما تستلزمه من التقاء ومواجهة ومناقشة ومحاورة .

من ثم كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الفن منهج غاير به ما كانت عليه الخطابة من قبل ، فقد نهج فيه الأسلوب الأمثل الذى يصله بقلوب الناس وعقولهم ، وتحاشى ما كان عليه فى الجاهلية من سجع مصنوع : فأصبحت الخطبة نسقًا مرتبًا ، وبناء مشيدًا يصل من أوله إلى منتهاه ، تدور حول غرض واضح فى ذهنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ينتقل فيها من جزئية إلى

جزئية ، حتى إذا تكامل الموضوع ، وتقرر لديه أن السامعين ألموا بما يريد أن يقدمه لهم أنهى خطبته نهاية تناسب ما ضمنها .

لقد أحدث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى فن الخطابة انقلابًا كبيرًا ، فبعد أن كانت الخطبة فى الجاهلية لا ترتكز على أساس من وحدة الموضوع وصحة المنطق ، أصبحت على عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ تقوم على الموضوع الواحد المحدد الأبعاد ، الواضح الحجة ، بحيث يمهد إليه فى مقدمة الخطبة ، حتى إذا أتم العرض ، أنهى الخطبة بما يناسب الموقف ، بحيث أصبحت الخطبة بنية تقوم على مقدمة وعرض وخاتمة ، يتناول فيها أحد جوانب الدعوة الإسلامية ، من عقائد وعبادات وقيم وأخلاقيات وآداب سلوكية ، وغير ذلك مما جاء به الإسلام أصولا وفروعًا .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خطابته حريصًا على مراعاة الموقف والقضية التى يعالجها والناس الذين يخاطبهم ـ شأنه فى جميع فنون البيان التى توسل بها ـ فجاءت خطبه لذلك متباينة الطول والأسلوب ، فالذى يعنيه فى الخطبة أن يوصل بها الفكرة إلى نفوس سامعيه ، دون نظر إلى طول الخطبة أو قصرها ، فالخطيب متمكن من موضوعه ، يملك زمام الكلمة ، بحيث يتنقل من فكرة إلى فكرة فى وضوح واتزان ، فإذا كانت المناسبة تقتضى الإيجاز أوجز ، وإذا عرض ما يقتضى الإفاضة أفاض وأسهب ، فقد روى أبو سعيد الخدرى أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب ذات يوم بعد العصر فما زال يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف .

إن الذى يلفت النظر فى خطابته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان لا يعتمد على إثارة المشاعر ، وتهييج العواطف ، بل كان يحرك المشاعر والعواطف من خلال العقل والمنطق الصادق ، فإذا المتلق مستجيب عن اقتناع ، ولعل هذا سر ميله إلى الإيجاز فى أكثر الأحيان ، حتى فى المواقف التى يظن أنه سيميل فيها إلى الإفاضة ، ولكنه بنظره الصائب يرى غيرما يتوقع فيوجز الإيجاز الحاسم ، كما صنع صلوات الله وسلامه عليه فى خطبته يوم فتح مكة ، حيث توقع الجميع منه خطبة يتعرض فيها لتاريخ الدعوة الطويل ، وموقف أهل مكة منه ، ليصفى حسابًا بينه وبينهم ويتشفى ويشمت معددًا نعم الله عليه ، ومشيرًا إلى مؤازرته له ..الخ كل هذه التوقعات . ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فى قوة هادئة :

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىّ هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ،

وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون خلفة فى بطونها أولادها » .

« يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم . وآدم من تراب . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أما البيان القصصى فقد كان من أبرز الفنون فى البيان النبوى ، تقديرًا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدور القصة فى التأثير ، وإدراكا منه لأثرها فى المتلق , إذ الفطرة تدعو النفس البشرية إلى الإقبال على القصة ، والإصغاء لمن يتفوه بها ، استجابة لحب استطلاع المجهول ، ومتابعة للأحداث ، وتطلعًا إلى النتائج والنهايات .

ودارس الأدب العربى فى العصر الجاهلى يجد إقبالا فطريًا من العرب ـ شعراء وغير شعراء ـ على فن القصة , فهى الإطار العام لمطولاتهم (المعلقات) ، وهى القالب الفنى الذى يضمنونه تاريخهم من وقائع وأيام ، حرصًا منهم على خلوده وانتشاره فى الزمان والمكان . فالقصة بديل التدوين والكتابة التى لم يكونوا يملكون من آلاتها ووسائلها ما يحقق لهم المطلوب منها .

بيد إن القصة فى البيان النبوى تأخذ سمت البيان النبوى ذاته ، فمضمونها هو مضمون البيان النبوى على العموم ، وأسلوبها يكاد لا يختلف عن باقى فنونه , إذ الكل يفيض من نبع واحد ، وينطلق متشعب الطرق إلى غاية واحدة . فإذا كانت القصة عند الجاهليين سجلا لأيامهم ووقائعهم ، ومعرضًا لمفاخرهم ومعاليهم ، ومرآة لمواقفهم ومغامراتهم ، ومسلاة فى محافلهم ومنتدياتهم ... فإن القصة فى البيان النبوى وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام ، تقرر العقيدة ، وتبسط الفكرة ، وتشرح المبدأ ، وتوضح الطريق ، وتفسر القرآن ، وتحذر من الخطأ ، وتذكر بالخير ، وتبين ما غمض أو أبهم .

أما ما يردده بعض الدارسين من أن القصة فى البيان النبوى ليست عملا فنيًا ، وأنها حكاية تنقل الحدث مجردة من مقومات القصة الفنية ... فهو وهم أملاه عليهم خطأ فى المقدمات التى يبنون عليها نتائجهم ، إذ مقومات القصة ـ كالشأن فى مقومات كل شىء ـ لا يمكن بحال أن تكون ثابتة فى كل عصر ، يراها الجاهليون فى الحدود التى يراها عليها المعاصرون ، بل لا يمكن أن تكون ثابتة فى كل موطن فى العصر الواحد ، بحيث يراها العرب المعاصرون بالمقاييس ذاتها التى

يراها فيها الأوربيون المعاصرون ... إلا إذا كان هؤلاء وأولئك خاضعين لمستوى واحد من البيئات الفطرية والثقافية واللغوية والسياسية ونحوها .

إن أبرز ما يطلب فى العمل الفنى أن يصل به صاحبه إلى مناط الحركة النفسية والفكرية والسلوكية والعاطفية فى متلقيه ، فيقتدر على توجيهه فى الوجهة التى يريدها نفسيًا أو فكريًا أو سلوكيًا أو عاطفيًا ، فإذا تمكن صاحب العمل من إقامته على القوة المحركة لهذه الجوانب الإنسانية ، فقد وفر لعمله عناصر الفن التعبيرى ، لأنه أقامه على وسائل الإقناع والإمتاع التعبيرية .

أما ما عدا ذلك من المقومات المادية ، فهى أمور عصرية بيئية ، لا يطالب بها من عاش خارج بيئتها زمانًا ومكانًا ، بل كُلٌّ مطالب بألا يخرج على أبعاد بيئته حتى لا يكون غريبًا .

ومن هذا المنطق كانت القصة واحدًا من أبرز الفنون التعبيرية فى البيان النبوى ، فقد عالج أصعب القضايا وأشقها على العقل الإنسانى اقتناعًا وسلوكا ، من خلال واقع أبرزه البيان فى صورة حادثة قصصية . كما نرى فى قصة (الثلاثة والغار والصخرة) ، حيث بين ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيمة العمل الصالح ، وأثره فى كشف ما يصيب الإنسان من كوارث الحياة ، وإمكان الاستشفاع به إلى الله . وكما نرى فى قصة (الأبرص والأقرع والأعمى) ، حيث عالج ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضية الإنسان بين حاضره وماضيه ، فكشف عن اختلاف الناس فى ذلك وتباينهم ، فمنهم من يتنكر لماضيه تماما ويحاول أن يسقطه من ذاكرته ويلغى هذه المدة من حياته ، ظنًا منه أن فى هذا انتقاصًا لمكانته التى وصل إليها . ومنهم من يظل على ذكر لما كان عليه ، لا يشغله ما وصل إليه عما كان فيه ، متخذا من هذا التذكر دافعًا إلى الخير .

والناظر إلى القصة فى البيان النبوى يلاحظ أنها لا تهتم بإبراز الأشخاص إلا بالقدر الذى يكشف عن الحدث ، ولا تهتم بالأحداث إلا بالقدر الذى يبرز المواقف . ثم هى تنتقى من المواقف التى تبرزها الأحداث ذلك الموقف الذى يوصل المتلقى إلى الغاية ، ويحقق الهدف .

فالقصة فى البيان النبوى بنية متكاملة من الفن البيانى ، تقوم على الحقائق التاريخية المقررة فى فكر صاحبها ، فهو يعرف ـ من أول الأمر ـ خط سيره فيها ، بحيث لا ينتقل من موقف إلى موقف إلا ليصله بالخاتمة التى تنتهى عندها القصة ، حيث يقر فى ذهن متلقيها ما أراد صاحبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقر فيه .

والرسالة من الفنون البيانية التى توسل بها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته ، على خلاف

ماكان ذائعًا عند العرب الجاهليين ، فقد كانوا يعتمدون فى مثل ذلك غالبًا على المشافهة .

والناظر فيما روى من رسائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يجد أنها كتب بعث بها إلى أشخاص مختلفى الجنسيات والمشارب يدعوهم فيها ـ لمكانهم من قومهم ـ إلى الإسلام ، ويحذرهم من مغبة الانصراف عن الدين الجديد ، ويحملهم مسئولية أنفسهم وقومهم جميعًا لما لهم من تأثير قوى فيهم .

فالرسائل النبوية أسلوب من أساليب الدعوة ، أو هى فن من فنون البيان توسل به ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما توسل به من وسائل بهدف التعريف بالدين الجديد والكشف عن حقيقته التى كلف من ربه بتبيانها والدعوة إليها .

وهذا يعنى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رسائله كما هو فى سائر الفنون البيانية ـ لم يكن سوى رسول مبلغ ينتقى من وسائل البيان ما يحقق به غايته ، ويؤدى به واجبه ، وليس أديبًا محترفًا يقصد بما يكتب أن يتفوق على غيره ممن ينافسهم أو ينافسونه فى مجال القول والتعبير .

ولا ريب أن البون شاسع بين مبين لا يسيطر عليه إلا تحقيق الإبانة ، فهو يتوسل إليها بكل وسيلة تمكنه من ذلك ، وبين مبين يقصد ببيانه أن يعلن على الناس مقدرته البيانية ، وتمكنه اللغوى ، ومكانته الفنية بين أنداده وضربائه .

ولتحقيق الغاية من الرسالة حرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن تتلاءم الرسالة مع المرسل إليه إيجازًا وإطنابًا ، وسهولة ووعورة ، ودقة وتخييلا . وإن بدا عليها ـ فى الجملة ـ أنها نوع من الإبلاغ الرسمى المحدد فى دقة وإحكام والذى يتشابه مع اختلاف المرسل إليهم ، ولكن مع شىء من التأنى والنظر يتبين مدى الفرق بين الرسالة والأخرى ، إذ لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليغفل عقلية المرسل إليه ، واتجاهه الدينى ، وواقعه الاجتماعى والسياسى . فرسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النجاشى تختلف عن رسالته إلى كسرى . وذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرف أن النجاشى كتابى يؤمن بالمسيحية ، ولديه ثقافة دينية مستمدة من الكتب السماوية . فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى النجاشى الأصحم ، سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على

طاعته ، وأن تتبعنى بالذى جاءنى ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين . فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت . فاقبلوا نصحى . والسلام على من اتبع الهدى » .

أما كسرى فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم تكبره وصلفه ، وأنه ليس من أهل الكتاب . فكانت رسالته إليه محددة حاسمة ، لا إيماءات فيها ولا تخييل .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

« أدعوك بدعاية الله عز وجل ، إنى رسول الله إلى الناس كلهم ، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين .

« أسلم تسلم ، فإن توليت فعليك إثم المجوس » .

هذان النموذجان من رسائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكشفان عن بعد نظره ، واتزان تقديره للأشخاص ، ودقة تعبيره ، وتمكنه من زمام اللغة تمكنًا أقدره على أن يخاطب كل إنسان بما يناسبه ، ليقوم بواجب الدعوة استجابة لأمر ربه ، وإسقاطا لعذر من قد يحاول أن يعتذر بعدم بلوغه الرسالة .

ويتقرر هذا إذا نظرنا فى كتابه إلى أكثم بن صيفى الحكيم العربى ، الذى جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى . أحمد الله إليك . إن الله أمرنى أن أقول لا إله إلا الله ، أقولها وآمر الناس بها . والخلق خلق الله ، والأمر أمر الله ، خلقهم وأماتهم ، وهو ينشرهم . ولتعلمن نبأه بعد حين » .

فقد جعل من كتابه إشارات تنبئ أنها من حكيم يعى تمامًا طبيعة من وجه إليه الرسالة ، ويعرف ما اشتهر به بين قومه من الحكمة والنظر المتأنى .

وجعل من كتابه إلى الحكيم المتأنى منبهات إلى الكون وأهم ما يدور فيه ، رابطا بين ذلك وبين ما يدعو إليه فى روعة الفنان الحكيم الدقيق ، فكان الكتاب هذه الكلمات المعدودات التى يعرف مخاطبه بأن ما يدعو إليه إنما هو بأمر ربه ، وأن ما أمر به ليس خاصًا به وحده ، ولكنه مأمور بأن يدعو الناس ويأمرهم به .

ولا ريب فى أن مثل أكثم بن صيفى ماكان يناسبه إلا مثل هذا الأسلوب ، ولاكان يلمس أوتار حسه ، ويقرع منافذ عقله إلا مثل هذه الكلمات الموجزة الوافية .

ثم إذا نظرنا فى ابتهالاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدنا أدبًا عاليًا اجتمع له من أسباب الروعة قوة الصدق ، وحرارة العاطفة ، وجمال التعبير ، ودقة السبك ، وأسر البيان .

لقد خلف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا الفن مأثورات اتجه فيها إلى الله فى كل أحوال الحياة وطوارقها ... إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا نام وإذا استيقظ ، وإذا سافر وإذا عاد ، وإذا أكل وإذا شرب ، وإذا مرض وإذا عوفى ، وإذا خاف وإذا أمن ، وإذا بزغ الهلال وإذا أفل ، وإذا أشرقت الشمس وإذا غابت ، وإذا نزل المطر وإذا انقطع ، وإذا سمع الرعد وإذا هبت الريح ، وإذا ركب وإذا مشى ، وإذا فرح وإذا حزن ، وإذا انتصر وإذا هزم .

تشرق الشمس على الدنيا فتسرى فى الكون حرارتها ، ويتنبه الناس إلى يوم جديد يستقبلونه ومعه ما يحمل من مجاهيل لا يدرى ما وراءها ، فيتجه إلى الله بقلب مؤمن خاشع يسأله العون والعافية والحفظ فى هذا المعترك الجديد بقوله :

« اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » .

فإذا أقبل المساء وظلل الكون برهبته ووحشته ، وانتشر الظلام فى الأفق ، تكشفت له عظمة الخالق المبدع ، فاتجه إليه يرجوه الحفظ ويطلب منه الصون ، ويلجأ إليه ليحميه من كل شر وضر قائلا :

« أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » .

« رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » .

إنك مع ابتهالاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام لون من البيان النبوى يكشف عن مكنون النفس ، ويصور تحركات العواطف البشرية ، واهتزاز الانفعالات المستورة أمام عوارض

الحياة ... ولست ـ كما يتوهم البعض ـ أمام أدعية مكررة ينوب بعضها عن بعض . وإلا فما سر هذا التلوين والتغيير فى الدعاء من حالة إلى حالة ؟ !

إنها دعوات طاهرة ، تصدر من نفس مؤمنة ، تتجه إلى الله فى كل حالة بما يناسب ، وليتضح الطريق أمام المقتدين به ، فهو المثل الأعلى والقدوة والأسوة ... على طريقه يسير المسلمون ، وبهديه يلتزمون .

ومن عجب أن دارسى الأدب ونقاده يحتفلون بألوان من فنون الأدب الهابط من هجاء ومجون وغزل بالمذكر ، ويتجاهلون مثل هذه الروائع البيانية بما تحمله من صدق وجمال وتصوير دقيق !

مما تقدم ـ على إجماله ـ نستطيع أن نتعرف على أبرز خصائص البيان النبوى التى تميزه من بيان غيره من بلغاء العرب ، وتسمو به إلى قمة البيان العربى ، إعلانا بأنه بيان إنسان اصطفاه ربه من بين أمته عن جدارة واستحقاق ليتحمل عبء الدعوة الجديدة ، وليكون مبينًا لكتابه . وداعيًا إلى دينه ، ونذيرًا وبشيرًا وهاديًا إلى صراط مستقيم .

وإذا كان نقاد الأدب ودارسوه قد اعتادوا فى هذه السبيل منهجًا ثابتًا يقوم على تقليب النظر فى عناصر الأسلوب التى حددوها من فكرة وصورة وعبارة ليروا مكان العمل الأديب من غيره . أو يقوم على إرسال كلمات فضفاضة واسعة تتكرر فى كل نقد أدبى من مثل متانة السبك ، وجزالة اللفظ ، وشدة الأسر ، أو إشراق اللفظ ، ووضوح الأفكار ، وجدة المعانى ، وحلاوة الرصف ، وبديع الانسجام ... إلى غير ذلك من الأوصاف المأثورة المحفوظة ... إذا كان النقاد والدارسون قد اعتادوا ذلك مع النصوص الأدبية ، فلسنا فى حاجة إلى مثل ذلك مع النظر فى البيان النبوى ، لأننا مع هذا البيان أمام خصائص واضحة تميزه عن غيره من الآداب دون منازع ، تفرض نفسها على الناقد الموضوعى إذا ما تأمل هذا البيان فى أناة وإخلاص .

وأول ما يلمسه الناقد الأديب فى البيان النبوى من الخصائص البيانية أنه يلتزم الإيجاز فى موطن الإيجاز ، والإطناب فى موطن الإطناب .

حقًا إن اشتمال البيان النبوى على هذا ليس فى ذاته خصيصة يختص بها من دون غيره من المبينين إذ يتصف بذلك ـ على وجه العموم كثير من أدباء العرب .

أما الخصيصة التى يمتاز بها عن غيره فى هذه السبيل فهى قيام البيان النبوى على ذلك فى كل حالاته ، فلم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حالة بالذى يذهل عن ذلك أو يغفل عنه ، وإنما

هو فى كل موقف لا يجاوز ببيانه مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، ولا يقف دونه .

وإذا جاز لنا أن نصفه بتلك الصفة (الإيجاز فى موطن الإيجاز ، والإطناب فى موطن الإطناب) فإنما هو مجاراة لما عليه البلاغيون وناقدو الأدب ، بيد أن أجد ما يوصف به ويوسم هو (الثبات على الاتزان) , فبيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتساوى فيه لفظه مع ما يقصده من المعنى على حسب ما يقتضيه المقام فى كل موقف من مواقف البيان .

وما ذلك إلا لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبين عن فطرة خالصة من شائبة التصنع والاحتراف . هذه الفطرة تدرك المدلول اللغوى للكلمة ، وتحيط بإيحاءاتها واستعمالاتها ، ويتضح أمامها ما يقصد إليه ليبين عنه وحدوده المناسبة للمقام الذى يتكلم فيه ، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتكلم بصيرًا بما يقصد ، بصيرًا بما يعبر عنه ، بصيرًا بمن يخاطب ، متمكنًا من اللغة ، يقول ما يقول دون أن يستعين له بأسباب الإجادة التى تتطلع إليها الفطرة اللغوية فى الإنسان ، ودون أن يحوله عنه ما قد ينشأ عن الموقف المفاجئ من حاجة إلى تقدير وروية وأناة وبعد نظر .

وإذا قلبنا النظر فيما بين أيدينا من فنون البيان النبوى وجدناها جميعًا تستوى على نسق واحد ، فما تجده فى البيان المباشر ـ من دقة التصوير ، ووضوح العبارة ، وحسن الديباجة ، وإحكام النسج ـ تجده فى البيان الخطابى والقصصى ، وما تجده فى البيان المكتوب أو المرسل تجده فى البيان المنطوق ، وما تجده فى البيان الموجز تجده فى البيان المطول مهما بلغ الطول ، بل إن ما تجده من ذلك فى مطلع الخطبة الطويلة تجده فى ثناياها وفى خاتمتها .

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيانه يسير على وتيرة واحدة من القوة مهما تغيرت المواقف والدواعى ، وأيًّا كان لون الفن الذى يتوسل به ، وعلى أى هيئة كان . وهذا لا يستقيم لكائن مخلوق سواه . إذ الكائن خاضع لحاجات وطوارئ تغير من استعداده ، فيتحول من النشاط إلى الكسل ، ومن الإقبال إلى التردد والصد ، ومن الإفصاح إلى العىّ والإقلال ، ومن الانشراح إلى الاكتئاب ... إلى غير ذلك من عوارض الحياة .

وما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالذى يخضع بيانه لأى من هذه العوارض البشرية إذ يبين ، فقد أوتى من القوة والقدرة ما يمكنه من تنحية هذه العوارض عن بيانه .

ونظرة إلى مختلف فنونه البيانية ، تقرر هذا الذى نقول ، بحيث يرى من يتأمل مطلع إحدى خطبه الطوال ويقارن بينه وبين خاتمتها أن المطلع والخاتمة يستويان أتم استواء وأدقه جزالة ورقة .

ورونقًا وجفافًا ، وتوعرًا وانسيابًا ... وأن ليس بين المطلع والخاتمة أى فارق من نشاط وفتور ، أو قوة وضعف ، أو وضوح وإبهام . وكذلك حال من يحاول أن يقارن بينه فى فن من فنون البيان وفن آخر , فدقة التصوير فى الحديث المباشر لا تختلف عن دقة التصوير فى الرسالة متى كان الموقف يتطلب التصوير ، ووضوح الغرض فى القصة النبوية يماثل وضوح الغرض فى فنون البيان الأخرى .

وإذا نحن رحنا نبحث عن سر استواء هذا البيان على نسق واحد ، بدت لنا خصيصة أخرى تميزه عن غيره من الآداب .

تلك الخصيصة هى عدم التكلف فى جميع حالاته ، إذ كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمتح من معين لغوى لا ينضب ، هيأته له فطرته المتميزة ، وإذ كان فى تعبيره لا يخضع لما يخضع له المحترفون من الحرص على التفوق وإحراز السبق على من عداه . وترضى السامعين . والتزلف إليهم ، مما يضطر المبين إلى إقامة بيانه على أسباب التصنع والتكلف ، حيث يعمدون إلى تهذيب كلامهم ومراجعته قبل أن يتفوهوا به ، ويضطرون إلى تكرار النظر فيه طلبا لتجويده وإحكامه ، فيحذفون ويضيفون ، ويستبدلون الكلمة بالأخرى ، ويقدمون ويؤخرون .. !

وما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيانه يضطر إلى شيء من هذا ، لأنه لم يكن يجاوز بكلامه مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، وما يتطلبه من وسائل الإقناع والتأثير .

هذا إلى أن المبين المحترف ـ كما يضطر إلى تكلف الصياغة ـ يضطر إلى تكلف المعنى والفكرة التى يعرضها فى كلامه ، إذ اللاحق دائما خاضع للسابق ، فهو يأخذ من أفكار السلف وحكمهم ، ويضيف إليها من تجاربه الشخصية ليصوغ منها ما يضمنه عباراته .

أما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ينزل إلى هذا المعترك القائم على التنافس ، ومن ثم لم يكن مضطرًا إلى ذلك الذى اضطر إليه الآخرون ، وإنما كانت معانيه وحيًا وإلهامًا ، وكانت حكمه فطرة وإعدادًا ربانيًا ، ويكفى أن تتلمذ على القرآن الكريم ، يأخذ عنه ، ويسير فى إطاره . فحق له أن يقول فى هذا الصدد : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . ولقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذا فقال فى تزكية منطقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى » .

ولا عجب فى هذا إذا تذكرنا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُعد هذا الإعداد الخاص ليحوز هذا التفوق فى ذلك الميدان الذى تميز فيه قومه ، ورأوا أنفسهم فيه القادة والسادة ، إعلانًا من

الله جل شأنه أن من يخاطبكم ليس شأنه شأنكم ، وإنما الذى أعده ليتفوق عليكم هو الذى ابتعثه وأرسله إليكم ، مقتدرًا على أن يخاطب كلا منكم ـ على اختلاف ألوانكم ومشاربكم ولهجاتكم ـ بما يناسبه ، دون عجز أو اضطراب أو تردد .

ولم يقف ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند حد النأى ببيانه عن التكلف ، بل لقد أنحى على فصحاء قومه وبلغائهم باللوم لتكلفهم فى صوغ الكلام ونطقه ، فحذر من التشادق ، وأعلن بغضه للثرثارين المتفيهقين فقال : « أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » .

وبتلك الخصيصة نزه بيانه عن الزيف والزور ، والفخر بالكذب ، وصرف الرغبة إلى الناس ، والإفراط فى مديح من أعطاه ، وذم من منعه .. إلى غير ذلك مما وقع فيه كثير من الأدباء .

ومن هذا المنطلق امتاز بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخصيصة أخرى كانت دليل قوته وإخلاصه وصدقه ، وإن رأى فيها بعض قصار النظر مأخذًا يحسب عليه لا له .

أما تلك الخصيصة فهى التكرار .

ما إن لمسها فى بيانه بعض الدارسين المتعجلين حتى ظنها فرصة تؤخذ عليه ، وينتقص بها بيانه ، تقديرًا منهم أن كل تكرار يعاب به الكلام .

ولو أمعن هؤلاء نظرهم لوجدوا هذا التكرار ميزة من مميزات كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى وقفوا ببيانهم دونها ، ولم يستطيعوا أن يقيموا عليها بيانهم دون انتقاص له .

إن التكرار فى البيان النبوى مما تتطلبه الدعوة ، لأن الدعوات الجديدة دائما فى حاجة إلى تقرير وتأكيد .

حقيقة إن التكرار قد يكون مملاً يبعث السأم والضيق ، فينفر وذلك إذا كان فاقد التلوين فى العرض والإبداع فى التصوير . أما إذا طرق النفوس من أبواب ملونة فإنه يكون ناجحًا مثمرًا .

والناظر فى البيان النبوى يجده قائمًا على التكرار ، لكنه تكرار المغزى الواحد فى صور مختلفة من القول تتغاير ألفاظها ومعانيها ، ثم هى تهدف إلى شىء واحد ، بحيث يتأملها المتلق فيجد فى كل نص عنصر تشويق فى العرض والتلوين ، دون أن يحس بأن هناك تكرارًا .

قام الإسلام على الاعتقاد بوحدانية الله ، فدعا إلى إخلاص النية له ، والاعتماد عليه ، والاتجاه دائمًا إليه دون غيره من المخلوقين .

ولقد عالج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الجزئية بعدة أساليب ، فقال مرة :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » رواه البخارى .

وقال فى المعنى نفسه :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت . ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : ما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت . ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه . ثم ألقى فى النار » رواه مسلم .

وروى عن أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق . فقال : اللهم لك الحمد . لأ تصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية ، فقال اللهم لك الحمد ، لأ تصدقن بصدقة . فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، فقال اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنى ! فأتى فقيل له : أما إن صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها . وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله » رواه البخارى .

فكرة واحدة ، قدمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكررة ، لكنها جاءت فى كل مرة تلبس ثوبًا جديدًا كل الجدة ، بحيث لا يلمس فى البيان أى تكرار ممجوج أو مكروه .

ففى الحديث الأول قدم المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الفكرة فى بيان مباشر يعتمد على التقرير المحدد الواضح .

وفى الحديثين الثانى والثالث قدم الفكرة فى بيان أقصوصى ، تدرك الفكرة من فحوى الأقصوصة دون تصريح بما يقصد إليه .

ثم هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الثانى أدار الأقصوصة وحوارها على من فسدت نيته ففسد عمله على الرغم مما فيه من خير ظاهر .

وفى الحديث الثالث أدار الأقصوصة على من صلحت نيته وخلصت لله فارتفعت بصاحبها عند الله ، دون اعتبار لأثر عمله الظاهر .

هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة لخصيصة التكرار فى البيان النبوى ، يكشف عن روعة هذا التكرار وقوته ويعلن أن دون الوصول إلى ذلك اللون البيانى مراحل ومراحل ، لا يمكن لإنسان غير محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقطعها .

ومن أبرز خصائص البيان النبوى وحدة الموضوع فيه كله ، ودورانه فى كل ألفاظه داخل إطار هذا الموضوع ، بحيث لا تخرج جملة واحدة عن دائرة الدعوة إلى دين الله والقيام عليه . والتوضيح لمبادئه ، والتمسك بقيمه ، فلن تسمع منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أخص خصوصياته البشرية ـ إلا ما يبشر بهذا الدين ويتصل به من قريب أو من بعيد .

ولقد تولد عن تلك الوحدة الموضوعية التزام كل فرعياته بما يلائم هذا الموضوع الواحد من وسائل بيانية جرسًا وإيماء ولفظا ونطقًا ، ومعنى وفكرًا ، وصورة وخيالا ... حتى ليظن الظان أن وراء ذلك قوة عظيمة هى التى نظرت فى ألفاظ اللغة وما يراد التعبير عنه ، فانتقت من اللغة اللفظ الملائم ، واصطفت من الصيغ التعبير المناسب ، وجمعت من الأخيلة والمعانى أقرب الصور وأصدقها ، ليقام عليها بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . !

والحق أن الذى وراء ذلك إنما هو قوة الفطرة ، والإعداد الإلهى له ليكون بين قومه القمة التى لا يصل إليها أحد مهما أوتى من قوة البيان والفصاحة .

وإنما كانت وحدة الموضوع إحدى خصائص البيان النبوى ، لأنها وحدة شاملة لا تقف على حالة دون حالة ، ولا تقصر على عمل دون عمل . أما الذى يسعى إليه البيانيون ممن عداه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تحقيق وحدة الموضوع فى العمل الواحد من بين أعمالهم الأدبية . فالشاعر يرجو ـ أو يرجى منه ـ أن تكون قصيدته واحدة الموضوع ، وليس شعره كله قائمًا على هذا الموضوع الواحد . والكاتب يرجو ـ أو يرجى منه ـ أن يقدم العمل الأدبى الواحد دائرًا فى حدود موضوع واحد ، وليست أعماله كلها . فإذا تحقق لواحد من هؤلاء أو أولئك شىء من هذا ـ أو

حتى إذا تحقق له توحيد الموضوع فى كل عمل على حدة ـ لم يتح له أن يحقق هذا التوحيد فى كل أعماله مجتمعة .

وهذا يعنى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيانه ـ ينهل من منهل واحد ، بيد أنه يلونه بالألوان التى يستدعيها المقام ، ويشكله بالأشكال التى يتلاءم معها الموقف .

ومن ثم تميز البيان النبوى بأن الفنون البيانية فيه ليست مقصودة لذاتها ، فليست الخطبة فيه مقصودة لميل منه معين إلى الخطبة ، وليست القصة ولا الحوار .. الخ كذلك ، إنما هى وسائل بيانية تفرضها ظروف خاصة فى الموقف الذى يبين فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إذ يلمس بحسه الفطرى ما يتطلبه الموقف من فنون البيان وألوانه ، فيتوسل به ليصل إلى المتلقى من أقرب الطرق إليه وأوضحها ، دون أن يدور به فى دروب متشعبة ، حين يلتزم فنًا مخصوصًا قد لا يكون المتلقى مهيئًا له فى ذلك الموقف بالذات ، وقد لا يكون هذا الفن صالحًا لذلك الموقف .

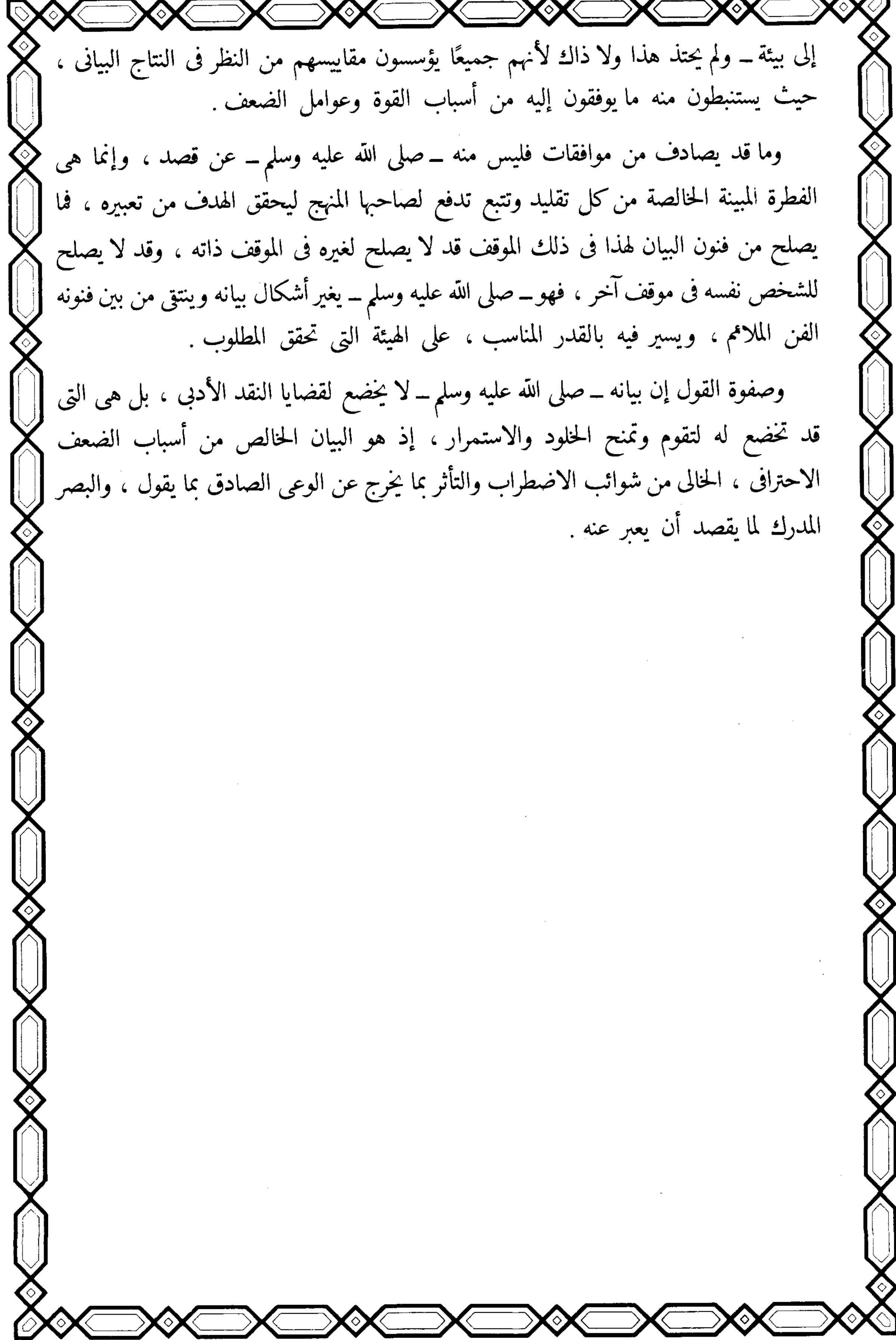
ولذلك لم يستطع دارس أو ناقد أن يخص بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفن من تلك الفنون دون آخر باعتباره الفن الغالب على بيانه أو البارز فيه ، إذ كل ما فى بيانه من فنون على مستوى واحد قوة ، وأداء ، وإقبالا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وعلى العكس من ذلك تجد من سواه من البلغاء والمبينين يحصر كل واحد منهم فى فن بعينه يدور معه ويبرز فيه ويشتهر به ، بحيث يرتبط الفن بشخصه ، أو يرتبط هو بفنه ، إذ الفنون الأخرى فى بيانه لا ترقى إلى مستوى هذا الفن الذى خص به ، فهى عنده هامشية أو ترف يكمل به أدبه ، حتى لا يوصم بالعجز أو النقص .

من ثم تجد الأديب الشاعر ، أو كاتب المقال ، أو الخطيب ، أو القاص ، أو المسرحى ... إلى غير ذلك ، فإذا تفحصت إنتاجه الأدبى رأيته وصف بما غلب عليه فخص به .

أما أنت مع البيان النبوى فلا تستطيع أن تخصه بواحد من تلك الفنون بذاته ، بل إنه ليجمع كل فنون النثر تلك على مستوى واحد . وما ذلك إلا لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يستعبد لفن من فنون البيان ، بل لم يستعبد للبيان ذاته ، وإنما البيان عنده وسيلة مجردة من كل إضافات ، فهو ينتقى من فنونه ما يستدعيه المقام ويتطلبه الموقف .

ويترتب على تلك الخاصية فى البيان النبوى مفارقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرره الناقدون وغيرهم من حدود وسمات ومقاييس لكل فن ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يضع فى تقديره ما قرره هذا أو ذاك ، فلم يخضع للأعراف النقدية ـ على اختلافها من عصر إلى عصر ومن بيئة



إلى بيئة ـ ولم يحتذ هذا ولا ذاك لأنهم جميعًا يؤسسون مقاييسهم من النظر فى النتاج البيانى ، حيث يستنبطون منه ما يوفقون إليه من أسباب القوة وعوامل الضعف .

وما قد يصادف من موافقات فليس منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قصد ، وإنما هى الفطرة المبينة الخالصة من كل تقليد وتتبع تدفع لصاحبها المنهج ليحقق الهدف من تعبيره ، فما يصلح من فنون البيان لهذا فى ذلك الموقف قد لا يصلح لغيره فى الموقف ذاته ، وقد لا يصلح للشخص نفسه فى موقف آخر ، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغير أشكال بيانه وينتقى من بين فنونه الفن الملائم ، ويسير فيه بالقدر المناسب ، على الهيئة التى تحقق المطلوب .

وصفوة القول إن بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخضع لقضايا النقد الأدبى ، بل هى التى قد تخضع له لتقوم وتمنح الخلود والاستمرار ، إذ هو البيان الخالص من أسباب الضعف الاحترافى ، الخالى من شوائب الاضطراب والتأثر بما يخرج عن الوعى الصادق بما يقول ، والبصر المدرك لما يقصد أن يعبر عنه .